حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٥ (عدد أكتوبر – ديسمبر ٢٠١٧)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

النص والسياق عند السيوطي في كتابه " معترك الأقران في إعجاز القرآن"

إيمان حميد العذري *

باحثة(دكتوراه) في قسم اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب جامعة عين شمس، جمهورية مصر العربية

المستخلص

كما يوضح البحث كيف أنَّ السيوطي كان يستعين بسياق المقام في فهم كل صغيرة وكبيرة في النص القرآني مثلما يستعين المحدثون بسياق المقام في فهم العمليات التواصلية، حيث يتجاوز السيوطي النظرة الجزئية المتمثلة في الوقوف على القواعد اللغوية التقليدية إلى النظرة الكلية من خلال الاهتمام بمعطيات السياق في سبيل فهم النص.

ومن خلال استقصاء دور السياق وأهميته في كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" اتَّضح لنا أنَّ السيوطي قد ناقش هذا الدور وأهميته من خلال ثلاثة محاور هي:

المحور الأول: دور السياق في اختيار كلمة دون غيرها.

المحور الثاني: دور السياق في اختيار فواصل الآيات.

المحور الثالث: دور السياق فيما يطرأ على القصة الواحدة من تغيير عند تكرارها.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٧.

يربط السيوطي في كتابه "معترك الأقران في إعجاز القرآن" بين النصِّ والسياق، ويؤمن بوجود علاقة وثيقة بينهما، حيث يتفاعل النص مع السياق المقامي، ويرد موائماً لظروف التنزيل وملابساته، ومراعياً لزمان الخطاب ومكانه، ومتناسباً مع المخاطبين وأحوالهم المختلفة.

وفي مسألة وقوع الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم ما يدلُّ على ارتباط النص بالسياق، والحرص على التدرُّج الذي يؤدي إلى إحداث عملية التغيير في الواقع.

ذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ خصَّ الأمة الإسلامية بوقوع الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم لحكمةٍ تتمثَّلُ في التخفيف والتيسير، حيث يتبدل الحكم بتبدُّل الظروف المحيطة به والمواكبة له، وذلك بدليل أنَّه "ليس في القرآن ناسخ إلا والمنسوخ قبله في الترتيب"(١).

ولأنَّ الحكمة منه هي التخفيف؛ فإنَّه لا يكون إلا في الأمر والنهي؛ ولذلك عاب السيوطي على الذين أدخلوا الوعد والوعيد في النسخ، حيث أكد على أنَّه لا يقع إلا في الأمر والنهي، ولو بلفظ الخبر، أمَّا الخبر الذي ليس بمعنى الطلب فلا يدخله النسخ، ومنه الوعد والوعيد، مشيراً إلى فساد صنع من أدخل في كتاب النسخ كثيراً من آيات الإخبار والوعد والوعيد(٢).

وقد ردَّ السيوطي على من استنكر وقوع الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم بحجة أنَّه كالذي يرى الرأي ثمَّ يبدو له غير ذلك، وليس الأمر كذلك، فقد أجمع المسلمون على جواز وقوعه في النص القرآني؛ لأنَّ النسخ مرتبطٌ بمدة الحكم الذي يتغير بتغيُّر ظروف الواقع وأحداثه التي لا تجري على وتيرة واحدة، وإنَّما هي في حركة دائمة ومستمرة.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ الربط بين النسخ وتحولات الواقع سيؤدي إلى إشكالية خطيرة؛ لأنَّ الواقع غير ثابت، فهو دائم التغيُّر في كل مكان وزمان، وواقعنا اليوم غير الواقع الذي نزل فيه القرآن، فهل نحتاج إلى النسخ مرة أخرى ليلائم النص القرآني واقعنا؟!

يقول السيوطي: "الوجه الثامن من وجوه إعجازه وقوع ناسخه ومنسوخه، وهو مما خُصَّتْ به هذه الأمة لحِكَم منها التيسير، وقد أجمع المسلمون على جوازه وأنكره اليهود ظناً منهم أنه بداء كالذي يرى الرأي ثم يبدو له، وهو باطل؛ لأنَّه بيان مدة الحكم، كالإحياء بعد الإماتة وعكسه، والمرض بعد الصحة وعكسه، والفقر بعد الغنى وعكسه، وذلك لا يكون بداءً، فكذا الأمر والنهي"(٣).

وفي سبيل تأكيد تفاعل النصِّ القرآني مع الواقع يتحدث السيوطي عن ما أطلق عليه "المنُسأ"، وهو ما أُمر به لسببٍ ثم يزول السبب، مثل الأمر حين القلَّة والضعف بالصبر والصلح، ثم نُسخ بعد ذلك بإيجاب القتال، فالمنُسأ هنا هو الأمر بالقتال عندما يقوى المسلمون، أمَّا في حالة ضعفهم، فإنَّ الحكم هو وجوب الصبر على الأذى، وبهذا يكون المنُسأ هو كل أمر ورد يجب امتثاله في وقتٍ ما لِعِلَّةٍ ما تقتضي ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال العلَّة إلى حكم آخر(٤).

إنَّ إدراك السيوطي لتفاعل النص القرآني مع السياق المقامي -مثل غيره ممن سبقه إلى ذلك من علماء التراث العربي والإسلامي-يعكس وعيه التداولي؛ وذلك على اعتبار أنَّ التداولية تُعنى بالعلاقة بين النصِّ والسياق، من خلال دراسة الملاءمة بين أفعال القول ومقتضيات الموقف المحيط به، ولأنَّ "الافتراض الأساس أنَّ كل نص يُعتبر مكوناً من مكونات سياق ظرف معين"(٥).

ويعتبر السياق Context من أهم الدعائم الأساسية التي تعتمد عليها اللسانيات التداولية في دراستها للغة أثناء الاستعمال، فضلاً عن أنَّ مراعاته شرطٌ أساسي في نجاح العملية

التواصلية بين منتج الكلام ومتلقيه، وأنّه يؤدي دوراً كبيراً في كشف المقاصد المتوخاة من الخطاب.

ولهذا فقد اهتم به الباحثون على اختلاف مشاربهم، وتعمَّقوا في البحث فيه، وتجاوزوا الجانب اللغوي منه إلى الجانب الاجتماعي، وتعدَّدت تسمياتهم له، ومنها: سياق الحال، وسياق المقام، وسياق الموقف، والسياق الخارجي، والسياق الاجتماعي، ومسرح اللغة، وغيرها من التسميات التي تُعبِّر في مجملها عن الظروف المحيطة بالحدث الكلامي، وكل ما يرتبط به من ملابسات الزمان والمكان والمتخاطبين وأحوالهم.

حيث يرى "فيرث" بأنَّ سياق الموقف مصطلحٌ واسعٌ يتجاوز السياقات اللغوية إلى المحيط الثقافي والاجتماعي، وأقوال المتخاطبين وأحوالهم وأفعالهم، وكل ما يتَّصلُ اتصالاً وثيقاً بالحدث اللغوي، وقد ذهب "جيفري إلز" إلى أنَّ مفهوم سياق الموقف كان من أهم الإسهامات التي ساهم بها "فيرث" في نظريته السياقية(٦).

وقد أكَّد "فيرث" أنَّ اهتمام العمل اللساني بالمقام يربط الأصناف التالية بعضها ببعض(٧):

(أ) السمات المتعلقة بالأطراف المشاركة كالأشخاص والشخصيات.

- **الحدث اللغوي للأطراف المشاركة.**
- **الحدث غير اللغوي للأطراف المشاركة.**

(ب) الأشياء الوثيقة الصلة بالموضوع (ج) تأثير الحدث اللغوي.

وعوداً على بدء فإنَّ من القضايا التي أشار إليها السيوطي في معتركه، وربط فيها أيضاً بين النص والسياق بصورة يتفاعل فيها كلٌّ منهما مع الآخر اختلاف الخطاب في النصِّ المكي عن الخطاب في النصِّ المدني.

وتجدرُ الإشارة إلى أنَّ علماء القرآن قد قسَّموا النصَّ القرآني إلى مكي ومدني، ووضحوا الخصائص التي تُميِّزُ كلاً منهما من الآخر، حيث يختلف كلُّ قسمٍ منهما عن الآخر في بنائه اللغوي واستراتيجياته الخطابية، بحيث يتواءم مع الظروف المصاحبة لنزول النصِّ القرآني بما فيها الزمان والمكان والسياق الثقافي والاجتماعي والأشخاص المعنيين بالخطاب.

ومن ذلك أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم، كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب؛ ولهذا كانت السور المكيَّة تتضمن الدين الذي اتفق عليه الأنبياء فكان الخطاب موجهاً لجميع الناس، أمَّا السور المدنية ففيها خطاب لمن أقرَّ بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين، فخوطبوا بـ يا أهل الكتاب، يا بني إسرائيل، يا أيها الذين آمنوا(٨).

ولأنَّ سورة البقرة أول ما نزل من القرآن في المدينة؛ فقد تضمنت قواعد الدين، وأمَّا آل عمران فكانت بمثابة تكملة المقصود، والجواب عن شبهات الخصوم، ولهذا ورد فيها ذكر المتشابه مما تمسك به النصارى، كما أوجب الحجّ في آل عمران، بينما ذُكر بأنَّه مشروع في البقرة وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه، وكان خطاب النصارى في آل عمران أكثر، بينما خطاب اليهود في البقرة أكثر؛ لأنَّها -كما سبق ذكره- أول ما نزل من القرآن في المدينة، والرسول صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم، وكان جهاده للنصارى في آخر الأمر، لأنَّ التوراة أصلٌ والإنجيل فرعٌ لها(٩) .

وبناءً على ما سبق، نستطيع القول: إنَّ هذه الاستعانة بسياق المقام في سبيل استيعاب خصائص النص المكي والنص المدني والتفريق بينهما تُشبه إلى حدٍ كبير اعتماد المحدثين على سياق المقام في فهم العمليات التواصلية.

ذلك أنَّ سياق المقام عند المحدثين هو المسؤول عن فهم الصورة المثالية للموقف التواصلي، وهذا السياق يحتوي على أحداث وصفات زمانية ومكانية لابدَّ من مواءمتها للعبارات المنتقاة لتجسيد هذا الموقف التواصلي، وجزء من هذا السياق أيضاً قد يكون على سبيل المثال أفعال وكلام المخاطبين وتكوينهم الداخلي ومعرفتهم واعتقاداتهم وغير ذلك(١٠).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ هايمس "Hymes" قد طوَّر منهجاً يقوم على التركيز على أهمية المبدأ الاجتماعي في فهم عمليات التواصل، حيث أشار في كتابه "Models of interaction of Language and Social Setting" إلى أنَّ دور السياق مزدوج في الفهم، فهو من جهة يحصر عدد المعاني الممكنة، ومن جهة أخرى يساعد على تبني ودعم المعنى المقصود (١١).

وقد حدَّد "هايمس" خصائص مميزة للسياق ركَّز فيها أولاً على الأشخاص المشاركين في الحدث الكلامي، حيث تختلف اللغة المستعملة باختلاف هوياتهم ومواقفهم الاجتماعية، ومن هذه الخصائص أيضاً ما يسميه بمحور الحديث، ويعني به الموضوع المتحدث عنه، فكلما زادت معرفتك به، فإنَّ توقعاتك تكون أكثر دقة وتحديداً، وبالذات إذا أضفت إلى ذلك معرفة الظرف الزماني والمكاني والوضع الجسمي للأطراف المشاركة(١٢).

كما تحدث أيضاً عن خصائص أخرى مميزة للسياق، منها القناة، ويعني بها كيفية ربط حلقة الوصل بين الأطراف المشاركة في الحدث الكلامي، هل تمَّ ذلك باللفظ أم بالكتابة أم بالإشارة، وكذلك الشفرة المستعملة، ويعني بها اللغة أو اللهجة أو الأسلوب المستعمل، وصيغة الرسالة، هل هي حديث عابر أم مناظرة أم خطبة أم حكاية شعبية أم قصيدة أم رسالة غرامية، وكذلك طبيعة الحدث التواصلي والغرض منه(١٣) .

وبالعودة إلى السيوطي ومعتركه نجد أنَّه قد أدرك كمن سبقه من علماء التراث العربي والإسلامي أهمية السياق وماله من دور كبير في توجيه المعنى وإضاءة مجاهيل النصِّ وجلاء غموضه.

حيث يتم تجاوز النظرة الجزئية المتمثّلة في الوقوف على القواعد اللغوية التقليدية إلى النظرة الشمولية أو الكلية من خلال الاهتمام بمعطيات السياق في سبيل تحديد هوية النصِّ– إن صحَّ التعبير-من خلال الإلمام بما يحيط به أو يكتنفه من قرائن وعلامات، وذلك في إطار ما يمكن أن يُطلق عليه تفاعل النص مع السياق.

ومما يدلُّ على ذلك إشارة السيوطي إلى أهمية معرفة أسباب النزول، هذه المعرفة ليست مجرد ولع بتوثيق الوقائع التي أحاطت بنزول النص القرآني، وإنَّما هي طريقٌ إلى فهم النص واستخراج دلالته.

يقول السيوطي: "قال الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسِّر كتاب الله إلا بعد أن يعرف الناسخ والمنسوخ، وجميع هذه الأوجه، مع علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان، وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، قال علي رضي الله عنه لقاضٍ: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت"(١٤).

وقد تحدث السيوطي عن فوائد معرفة أسباب النزول في كتابه الإتقان: ومنها الوقوف على المعنى وإزالة الإشكال، حيث لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها، مؤكداً أنَّ بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن، فهو يُعين على فهم الآية؛ ذلك أنَّ العلم بالسبب يورث العلم بالمسبَّب(١٥).

والحقُ أنَّ قاعدة "العلم بالسبب يورث العلم بالمسبَّب"، تشبه إلى حدٍّ كبير القاعدة التي تقول: "كلما زادت معرفة المحلّل بخصائص السياق، زادت قدرته على التنبؤ بما يمكن قوله"(١٦).

وكثيراً ما كان السيوطي يذكر مصطلحي السياق وقرينة الحال –وإن لم يكن له فضل السبق في ذلك- في معتركه، حيث كان يتكئ على السياق في فهم كلِّ صغيرة وكبيرة في النص القرآني، بما في ذلك مرجع الضمير، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

يقول السيوطي عن الضمير: "لابد له من مرجع يعود إليه ملفوظاً به سابقاً مطابقاً، نحو: **{وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ}[هود: ٤٢]، {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[طه:١٢١]، {إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا } [النور:٤٠].**

أو متضمِّناً له؛ نحو: **{اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}[المائدة: ٨]**، فإنه عائدٌ على العدل المتضمِّن له **(اعْدِلُوا)**.

وقد يدلُّ عليه السياق فيُضمر ثقة بفهم السامع، نحو: **{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}[الرحمن: ٢٦]، {مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا}[فاطر:٤٥]**؛ أي الدنيا، **{وَلِأَبَوَيْهِ...}[النساء: ١١]**؛ أي الميت، ولم يتقدم له ذكر"[١٧].

وفي موضع آخر يقول السيوطي عن قوله تعالى: **{أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ}[الأنبياء: ٣٦]**"لما كان الذكر بمدح وذم، ذكروا أنَّ إبراهيم يذكر آلهتكم بالذم، دلَّتْ على ذلك قرينة الحال، وهم بذكر الرحمن في موضع الحال، أي كيف ينكرون ذمَّك لآلهتهم وهو يكفرون بالرحمن، فهو أحقُ بالملامة"[١٨].

وهذا يؤكد أن السياق يُعوَّلُ عليه في فهم القضية التي تمَّ الحديث عنها، بل لا يمكننا أن نحدِّد أي قضية يتم الحديث عنها دون معرفة السياق، إذ إنَّ للسياق علاقة مباشرة في فهم الوحدات الكلامية على مستويات مختلفة ومتعددة.

وبعد أن استقصينا دور السياق وأهميته في كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" اتَّضح لنا أنَّ السيوطي قد ناقش هذا الدور وأهميته من خلال ثلاثة محاور هي:

المحور الأول: دور السياق في اختيار كلمة دون غيرها.

المحور الثاني: دور السياق في اختيار الفواصل.

المحور الثالث: دور السياق فيما يطرأ على القصة الواحدة من تغيير عند تكرارها.

<u>أولاً: دور السياق في اختيار كلمة دون غيرها:</u>

يبدأ السيوطي بالسؤال: لِمَ خُصَّت سورة النازعات باسم الطَّامة، وسورة عبس باسم الصَّاخَّة مع أنَّهما شيء واحد؟ ويجيب عن ذلك بأنَّ الغرض الذي سيقت لأجله كل سورة منهما هو السبب.

ذلك أنَّ الغرض الذي لأجله سيقت سورة النازعات هو التخويف والإنذار، وعلى ذلك بُنيت، **{يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ}[النازعات: ٦، ٧]**، فابتداء السورة وختامها تخويف، ولذلك ناسبها اختيار أشدّ الكلمتين وقعاً **{فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى}[النازعات: ٣٤]**؛ حيث إنَّ كلمة (الطَّامَّة) أرهب وأنبأ بأهوال القيامة؛ لأنَّها من قولهم: طمَّ السيل، إذا علا وغلب، وأمَّا الصَّاخة فالصيحة الشديدة، من قولهم: صخَّ بأذنيه مثل أصاخ، فأطلق على القيامة مجازاً؛ لأنَّ الناس يصيخون لها، فلما كانت الطامَّة أبلغ في الإشارة إلى أهوالها خُصَّ بها أبلغ السورتين في التخويف والإنذار[١٩].

وأمَّا سورة عبس فإنَّها لم تُبْنَ على ذلك الغرض، وإنَّما بُنيت على قصة عبدالله بن أم مكتوم الأعمى، ثم ورد قوله تعالى: **{فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ}[عبس:٣٣]**، عقب التذكير بقوله: **{إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ} [عبس: ١١]**، والتذكير للاعتبار بقوله: **{فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ...}[عبس: ٢٤] إلى قوله: {مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}**، ثم أتبع بعد ذكر الصَّاخة بقوله: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ}[عبس: ٣٨، ٣٩]**، ومن هنا كانت سورة النازعات على الجملة أشدَّ في التخويف والترهيب؛ فناسبها أبلغ الكلمتين من أسماء القيامة[٢٠].

ثانياً: دور السياق في اختيار الفواصل:

ومن ذلك قوله تعالى: **{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ } [الحاقة: ٤١- ٤٢]** ، حيث خُتمت الآية الأولى بـ **{تؤمنون}** ؛ لأنَّ مخالفة القرآن لنظم الشعر ظاهرة واضحة لا تخفى على أحد؛ ومن هنا فإنَّ قول من قال شعر عناد و كفر محض؛ فناسب ختمه بقوله **{قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ}**، وأمَّا الآية الثانية فقد خُتمت بـ **{تَذَكَّرُونَ}**؛ وذلك لأنَّ مخالفة القرآن لنظم الكهَّان وألفاظ السجع تحتاج إلى تدبُّر وتذكّر؛ لأنَّ كلاً منهما نثر، فليست مخالفته لهما في وضوحها لكل أحد كمخالفة الشعر، وإنَّما تظهر وتتَّضح بتدبّر ما تميَّز به القرآن من الفصاحة والبلاغة والبدائع والمعاني الأنيقة؛ فحسُن ختمه بقوله **{قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ}**[٢١].

وكذلك قوله تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ٩٧ – ٩٩]** .

"ذلك أنَّ حساب النجوم والاهتداء بها يختصُّ بالعلماء من ذلك، فناسب ختمه بـ**{يعلمون}**، وإنشاء الخلائق من نفس واحدة ونقلهم من صلب إلى رحم ثم إلى الدنيا ثم إلى حياة وموت، والنظر في ذلك والفكر فيه أدقُّ؛ فناسب ختمه بـ**{يفقهون}**؛ لأنَّ الفقه فهم الأشياء الدقيقة، ولما ذكر ما أنعم به على عباده من سعة الأقوات والأرزاق والثمار وأنواع ذلك ناسب ختمه بالإيمان الداعي إلى شكره تعالى على نعمه"[٢٢].

ومن خلال ما سبق نلاحظ أنَّ السيوطي يُكثر من استعمال لفظ المناسبة للتعبير عن حسن ختام الآية بما يتواءم مع سياقها، (فناسب ختمه بـيعلمون، فناسب ختمه بيفقهون...)، والحقيقة أنَّ لفظ المناسبة هو اللفظ الذي يستخدمه المحدثون للتعبير عن صفة اطراد النجاح التداولي للعبارة المُتلفظ بها.

حيث عبَّر المحدثون عن أنَّهم بحاجة إلى لفظٍ مخصوص يدل على صفة اطراد النجاح التداولي للعبارة المتلفظ بها؛ لأنَّ هناك أوجهاً لنجاح "نحوي"، بل وأيضاً لنجاح "سيكولوجي" و"مجتمعي"، وقد وجدوا أنَّ لفظ المناسبة يمكن أن يُستعمل فيما يخصُّ النجاح التداولي[٢٣] .

وبناءً على ما سبق نستطيع القول إنَّ ما ورد في الأمثلة السابقة من حديثٍ عن أهمية السياق ودوره في اختيار فواصل الآيات هو عبارة عن تحليل سياقي Contextual analysis إن صحَّ التعبير.

حيث تمَّ ربط البنية النصية بالبنية الواقعية، وإثبات أنَّ السياق المقامي Context Situationnel المتعلق بالظروف والملابسات المحيطة بالنص متمم للسياق اللغوي Context Verbal المتعلق بالجانب التركيبي للغة .

ولا شكَّ في ذلك؛ إذ إنَّ المقولات -كما يذهب إلى ذلك التداوليون- تحتاج في سبيل اكتمال فهمها واستيعاب معانيها إلى ما يطلقون عليه التمام السياقي Contextual Completness وهذا يعني أنَّ المعلومات التي تحملها المقولات لا تكتمل إلا بمعرفة ما يحمله السياق من قرائن .

وعلى هذا فإنَّ ما ورد في كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" وغيره من كتب علمائنا القدامى من حديثٍ عن السياق وأهميته يدخلُ في صميم الدراسة التداولية، إذ " أنَّ أي مقاربة لسانية تتضمن اعتبارات سياقية تنتمي بالضرورة إلى ذلك المجال من الدراسة اللغوية التي تسمى التداولية Pragmatics"(٢٤).

ثالثاً: دور السياق فيما يطرأ على القصة الواحدة من تغيير عند تكرارها:

يحتكم السيوطي إلى السياق في تفسير الكثير من الظواهر اللغوية، كالتقديم والتأخير، والزيادة والحذف، والتعريف والتنكير، والإفراد والجمع، وغير ذلك مما أورده تحت ما أسماه بالوجه السادس من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهو مشتبهات آياته.

وقد عبَّر عن ذلك بقوله: "وذلك أنَّ القصة الواحدة ترد في سورٍ شتى وفواصل مختلفة بأن تأتي في موضع مقدماً وفي آخر مؤخراً، كقوله تعالى في سورة البقرة:**{وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ} [البقرة: ٥٨]** ، وفي سورة الأعراف: **{وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} [الأعراف: ١٦١]** ، وفي سورة البقرة :**{وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ} [البقرة: ١٧٣]**، وفي سائر القرآن: **{وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ}[المائدة: ٣ ، الأنعام: ١٤٥ ، النحل: ١١٥]**، وفي موضع بزيادة وفي موضع بدونها؛ نحو: **{سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ} [البقرة: ٦]**، وفي سورة يس **{وَسَوَاءٌ } [يس: ١٠]**، وفي البقرة: **{وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} [البقرة: ١٩٣]** ، وفي الأنفال **{كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال: ٣٩]** .

وفي موضع معرفاً وفي آخر منكراً، أو مفرداً وفي آخر جمعاً، أو بحرف وفي آخر بحرف آخر، أو مدغماً أو مفككاً"(٢٥).

وقد ذكر بأنَّ هذا النوع يتداخل مع ما يُسمى بنوع المناسبات، ثم ذكر أنَّ هنالك الكثير ممن سبقوه قاموا بالتصنيف فيه، وكان أفضل ما صُنِّف في ذلك "ملاك التأويل في متشابه التنزيل" لأبي جعفر بن الزبير، يليه "درة التنزيل وغرة التأويل" لأبي عبدالله الرازي، ثم "البرهان في متشابه القرآن" للكرماني(٢٦).

كما أشار إلى أنَّه قد ذكر من هذا النوع الجمَّ الغفير في كتابه أسرار التنزيل المُسمَّى " قطف الأزهار في كشف الأسرار" وقد أورد منه في كتابه "معترك الأقران في إعجاز القرآن"، ونحن بدورنا نختار منه بعض الأمثلة التي وضَّح السيوطي فيها دور سياق الحال بجميع عناصره المختلفة فيما يطرأ على الآية من تقديم وتأخير وغير ذلك من الظواهر اللغوية التي سبق ذكرها(٢٧).

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: **{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: ٣٥]** ، وقوله تعالى في سورة الأعراف: **{وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأعراف : ١٩]** ، حيث ذكر في البقرة **{ وَكُلا }** بالواو، وفي الأعراف **{ فَكُلا }** بالفاء؛ وذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالى نسب الخطاب في سورة البقرة إليه **{وَقُلْنَا يَا آدَمُ}**، فناسب ذلك زيادة الإكرام بالواو الدَّالة على الجمع بين السكنى والأكل، ولذلك زاد فيها قوله **{رَغَدًا}**، وقال: **{حَيْثُ شِئْتُمَا}**؛ لأنَّه أعمّ، بينما في الأعراف أتى بالفاء الدالة على ترتيب الأكل على السكنى المأمور باتخاذها؛ لأنَّ الأكل بعد الاتخاذ، وزاد **{مِنْ}** قبل **{حَيْثُ شِئْتُمَا}**، فلم تعطي نفس معنى العموم في قوله تعالى **{حَيْثُ شِئْتُمَا}** في البقرة(٢٨)، وهنا يظهر الاختلاف في الآية عندما نُسب الخطاب إلى الله سبحانه وتعالى.

ونظير ذلك في قوله تعالى في سورة البقرة: **{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ} [البقرة: ٤٩]**، وقوله تعالى في سورة

إبراهيم: **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ }[إبراهيم : ٦]**.

فالخطاب في البقرة منسوب إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ولذلك لم يُعدِّد عليهم المحن تكريماً في الخطاب **{يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ}**، أمَّا في الأعراف فإنَّ الخطاب منسوب إلى موسى؛ ولذلك عدَّدها، فزاد حرف العطف (الواو): **{وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ }**[٢٩].

وهكذا تختلف لغة النص الواحد باختلاف قائله، وهذا ينطبق أيضاً على اختلاف المخاطب، مثل قوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: **{قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٦]**.

وقوله في آل عمران: **{قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[آل عمران: ٨٤]**.

حيث ورد في البقرة **{وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا}**، وفي آل عمران **{وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا}**، لأنَّ الأولى خطاب للمسلمين، والثانية خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم: **{قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ}**، و **{إِلَى}** حرف يُعبَّر به عن الإتيان من كل جهة، أمَّا **{عَلَى}** فلا يُعبَّر به إلا عن الإتيان من جهة واحدة وهي العلو، والفرقان يأتي المسلمين من كل جهة يأتي مُبلِّغه إياهم، وإنَّما أتى النبي صلى الله عليه وسلم من جهة العلو خاصة، ولذلك ناسب قوله **{عَلَيْنَا}** لمَّا كان الخطاب موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم، وقوله **{إِلَيْنَا}** لمَّا كان الخطاب موجهاً للمسلمين[٣٠].

ومثلما كان لاختلاف متلقي الخطاب وعلى لسان من ورد في النص القرآني دورٌ في اختلاف لغته كما ظهر في الأمثلة السابقة، فإنَّ بقية عناصر السياق لها أيضاً دور في ذلك.

ومن ذلك اختلاف موضوع الخطاب في قوله تعالى: في سورة البقرة: **{وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ} [البقرة: ٤٨]**، ثم قوله بعدها في نفس السورة **{وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ} [البقرة: ٢٣]** .

حيث ظهر الاختلاف من ناحيتين: أولاً: التقديم والتأخير، ففي الآية الأولى قدَّم الشفاعة على العدل: **{وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ}**، وفي الآية الثانية قدَّم العدل على الشفاعة: **{وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ}**، ثانياً: اختلاف التعبير فيهما، ففي الأولى ذكر عدم قبول الشفاعة، وفي الثانية ذكر عدم نفعها.

وقد ذكر السيوطي أنَّ السبب في ذلك هو اختلاف موضوع الخطاب في الآيتين، ذلك أنَّ الضمير في (منها) يرجع في الآية الأولى على النفس الشافعة الجازية عن غيرها؛ ولذلك قُدِّمت الشفاعة؛ لأنَّ الشافع يُقدم الشفاعة على بذل العدل عنها.

وأمَّا في الآية الثانية فإنَّ الضمير يرجع على النفس المطلوبة بجرمها، إذ لا يُقبل منها عدلٌ عن نفسها، ولا تنفعها شفاعة شافع فيها، وقد قُدِّم العدل في هذه الآية؛ لأنَّ الحاجة إلى الشفاعة إنَّما تكون عند ردِّه[٣١].

ولنفس السبب أيضاً ذكر في الآية الأولى عدم قبول الشفاعة، وفي الثانية عدم نفعها؛ ذلك أنَّ الشفاعة إنَّما تُقبل من الشافع، وإنَّما تنفع المشفوع له[٣٢].

ومن الأمثلة التي ذكرها السيوطي وكان لعنصر الزمان -بوصفه من عناصر سياق الحال-تأثير على اختلاف اللغة في الآيات قوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة **{رَبِّ اجْعَلْ**

هَذَا بَلَدًا آمِنًا}[البقرة: ١٢٦]، وفي سورة إبراهيم **{رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا}[إبراهيم: ٣٥]**، بتعريف (البلد) .

حيث ذكر السيوطي أنَّ الدعاء الأول دعا به إبراهيم قبل مصيره بلداً عند تركه لهاجر وإسماعيل به وهو وادٍ، فدعا بأن يصير بلداً، أمَّا الدعاء الثاني فقد دعا به بعد عودة وسكنى جرهم به ومصيره بلداً، فدعا بأمنه(٣٣).وهكذا يتضح لنا إدراك السيوطي للتفاعل الحاصل بين النص القرآني والسياق، وهو إلى جانب ذلك كان يدرك بأنَّه مهما أورد من الأمثلة لهذا الأمر، فإنَّه لن يتمكن من الإحاطة به؛ "فهذا بحرٌ لا ساحل له"(٣٤).

الخاتمة:

١- ربط السيوطي في كتابه معترك الأقران في إعجاز القرآن بين النص القرآني والسياق المقامي، حيث يتفاعل النص مع السياق ويرد موائماً لظروف التنزيل وملابساته، ومراعياً لزمان الخطاب ومكانه، ومتناسباً مع المخاطبين وأحوالهم المختلفة.

٢- اهتم السيوطي بأسباب النزول لا لمجرد الولع بتوثيق الوقائع التي أحاطت بنزول النص القرآني، وإنَّما لأنَّها طريق إلى فهم النص واستخراج دلالته.

٣- كثيراً ما كان السيوطي يذكر مصطلحي السياق وقرينة الحال في كتابه معترك الأقران في إعجاز القرآن وإن لم يكن له فضل السبق في ذلك.

٤- استخدم السيوطي لفظ (المناسبة) بكثرة في كتابه معترك الأقران في إعجاز القرآن؛ للتعبير عن حسن ختام الآية بما يتواءم مع سياقها، والحقيقة أنَّ لفظ المناسبة هو اللفظ الذي يستخدمه المحدثون للتعبير عن صفة اطراد النجاح التداولي للعبارة المتلفظ بها.

٥- احتكم السيوطي إلى السياق في تفسير الكثير من الظواهر اللغوية، كالتقديم والتأخير، والزيادة والحذف، والتعريف والتنكير، والإفراد والجمع، وغير ذلك مما أورده تحت ما أسماه بالوجه السادس من وجوه إعجاز القرآن الكريم وهو مشتبهات آياته.

Abstract

The text and context in Al-Suyuti Book *" Mu'tarak Al-Aqran fi Ijaz Al-Quran"*
By Eman Hameed Alethary

The present research aims at studying how Al-Suyuti links between the Quranic text and context through several issues by which he clarifies the int eraction happening between them, which includes his efforts in the framewo rk of pragmatics as it concerns the relationship between text and context.

The research also expresses the way that Al-Suyuti used the context to u nderstand every little detail in the Quranic text the way that the narrators use the context to understand the communicative processes. Al-Suyuti goes bey ond the partial view represented in understanding the traditional linguistic ru les to the holistic view through the interest in the context data to understand the text.

It was appeared through the survey of context role and its importance in the book " Mu'tarak Al-Aqran fi Ijaz Al-Quran" that Al-Suyuti discussed thi s role and its importance through the following three axes:

First Axis: The context role in a word selection not another.

Second Axis: The context role to select the Quranic verse ending.

Third Axis: The context role in the change that appears when a story is repeated

الهوامش

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن: أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١ه)، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط/١، ١٤٠٨ه-١٩٨٨م: ٩٢/١.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٨٤/١ .
(٣) المصدر نفسه: ٨٣/١ .
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٨٥/١ .
(٥) اللغة والمعنى والسياق: جون لاينز، ترجمة: عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط/١، ١٩٨٧م: ٢١٥ .
(6) On Contextual Meaning: Ellis, J: In Bazell, (E.et. al ceds) In Memory of J. R. Firth. Longman, 1970. P 79.
(٧) ينظر: تحليل الخطاب: ج.ب. براون - ج. يول، ترجمة وتعليق: د. محمد لطفي الزليطي، د. منير التريكي، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م: ٤٧.
(٨) ينظر: معترك الأقران: ٥٣/١.
(٩) ينظر: المصدر نفسه: ٥٣/١ .
(١٠) ينظر: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: فان دايك، ترجمة: عبدالقادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء- المغرب، أفريقيا الشرق، بيروت- لبنان، ٢٠٠٠م: ٢٥٧.
(١١) ينظر: تحليل الخطاب: ٤٧.
(١٢) ينظر: المرجع نفسه: ٤٧، ٤٨.
(١٣) المرجع نفسه: ٤٧، ٤٨.
(١٤) معترك الأقران: ٩٩/١.
(١٥) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٨٢/١، ٨٣ .
(١٦) تحليل الخطاب: ٥٠ .
(١٧) معترك الأقران: ٣/ ٤٦٣، ٤٦٤ .
(١٨) المصدر نفسه: ٣/ ٢٤٥ .
(١٩) ينظر: المصدر نفسه: ٣/ ١٢٠ .
(٢٠) ينظر: المصدر نفسه: ٣/ ١٢١ .
(٢١) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٣٥ .
(٢٢) المصدر نفسه: ١/ ٣٤ .
(٢٣) ينظر: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: ٢٥٧.
(٢٤) تحليل الخطاب: ٣٢.
(٢٥) معترك الأقران: ١/ ٦٦.
(٢٦) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٦٦.
(٢٧) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٦٦.
(٢٨) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٦٧.
(٢٩) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٦٧، ٦٨ .
(٣٠) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٧٠ .
(٣١) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٦٧ .
(٣٢) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٦٧ .
(٣٣) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٦٩ .
(٣٤) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٧٢ .